



تصف الثورة السورية بصفاتٍ نوعية تُنفرد بها من دون معظم ثورات وطننا العربي، اكتسبتها من خلال:

أولاً، حجم الكتل المجتمعية التي شاركت فيها، وتنوع قطاعاتها، وتغطيتها الأرض السورية من أقصاها إلى أدنائها، فقد نزل ذات يوم جموعة إلى شوارع قرى وطننا وبلداته ومدنها ثمانية ملايين، أي 35% من مجموع السوريين إناثاً وذكوراً، وهم يهتفون للحرية ولوحدة الشعب والوطن، وهي نسبة فريدة في تاريخ الثورات، قدّيمها وحديثها، أضفت على الحراك السوري طابعاً مجتمعاً لا حدود له، جعلته حراك شعبيٍّ، وليس حراك فئة أو طبقة أو جهة أو جماعة أو حلف سياسي... إلخ. كان هذا الطابع المجتمعي الواسع سلبياً سبعة أشهر، على الرغم من سقط برصاص سلطة استهدفت جسدية المجتمع، لاعتقادها أن انفكاكه عن مطالبه من خلال ضغط عنفها المفرط سيعني انفراط عقد ثورته، وإفراغها من حاملها الوطني الجامع، وإفراج أهدافها من شرعيتها وقدرتها التعبوية المذهبة. طمرت الثورة النظام بثافة مجتمعية، جسدت غضب الوطنية السورية على أشخاصه وممارساته التي لم يسبق أن عبر عن ما يماثله هو أو أي شعب عربي، وربما أجنبي، آخر.

ثانياً، حجم من حملوا السلاح، وكانوا بداية الثورة متظاهرين سلميين، ثم أجبرهم عنف السلطة المسلح على الرد عليهما بعنف مضاد. جسدت أعداد من انحرطوا في العمل المسلح كثافة المتمسكين بأهداف الحراك السلمي الذين لم يترك القتل الممنهج والليومي المتفاقم أي خيارٍ لهم غير الهجرة أو الخروج من الثورة (بصورة دائمة أو إلى حين)، أو حمل السلاح ضد النظام أو إلى جانبه، وكذلك تأييد وجهات نظره حول الإرهابيين وحماية الأقليات. بما أن عنف الأسدية اتسع بسرعة وغطى مجمل الأرض السورية، فإن عدداً هائلاً من ضحاياه المدنيين والعزل اختاروا الرد على سلاحه بسلاحهم، وقد عبرت كثافتهم عن استمرار هوة العداء بين الشعب وبينه وتعاظمها، وأبقت على الحضور الشعبي في صراعٍ أخذ يصير إقليمياً ودولياً. كانت هذه المقاومة وظلت شرعية، على الرغم مما شاب بنى التنظيمات المسلحة وعملها من عيوبٍ جسيمة، كانحراف قسم كبير منها نحو عسکرة مطيفة/ متمذهبة، لا تلتزم بنادقها المشتتة والمعتارية بقيادة سياسية أو عسكرية موحدة وذات هوية و مدى

جميعها، بما فيها التي انتمت إلى الجيش الحر، إلى مقاومة أي تشكيلات موحدة تمارس قتالاً منظماً، مستمراً ومتكملاً ضد سلطةٍ طغائيةٍ تقتل شعبها، وتهجره من جميع ربوع وطنه، يستحيل ردعها وإسقاطها من دون قيادة عسكرية خبيرة ومركزية، تطبق استراتيجية سياسية، تترجمها إلى معارك شاملة، تغطي مجمل الرقعة السورية مرةً أو مرتين في العام، وتشن في وقت واحد أو متقارب، على أن تشارك فيها تشكيلات موحدة، تخضع لقيادة لا رادٌ لأوامرها، تدير جميع من يحملون السلاح ضد النظام، المتهيكلين في وحداتٍ منتشرة في جميع مناطق سوريا، تتكامل وظائفها الميدانية على الرغم من تباين مهامها، تكون متراقبة التنظيم، مدربةٍ وقادرةٍ على خوض معارك منسقة، يعرف قادتها كيف ينجذبون مع كل هجوم استراتيجي يقومون به خطوة إضافية نحو انتصار الثورة وحرية الشعب.

ثالثاً، حجم التضحيات التي قدمها الشعب السوري، وما أبداه من قدرةٍ إبداعية على ابتكار معادلات صراعية، وطاقات صمود، لم تكن تخطر ببال أكثر المتعاطفين معه، والمنخرطين في ثورته. عموماً، كان عدد كبير من أفراد النخب المعارضة يعتقد أن السلطة السورية ألغت مجتمعها وغدت مطلقة القوة، وأن السوريين ضعفاءً وممزقون، ويفتقرون إلى التصميم والعزم الضروريين للتمرد على الأسدية. ثم عندما قام التمرد، تبين أنهم أقوىَّ وأكثرَّ مما افترض أيُّ معارض. أولاً: لأنهم تمكّنوا من الانتقال من السلمية إلى العمل المسلح وهم تحت نيران مدافع جيش النظام وصواريشه وشبيحاته، ونجحوا في ذلك من دون أن تتوفر لهم قيادة موحدةٍ وخبيثةٍ (فيما بعد ومع إطالة الحرب سيصبح غياب هذه القيادة أخطر مشكلة تواجهها الثورة)، بل إنهم نجحوا أيضاً في كسر تفوق النظام العسكري، ودمروا عصاياته المسلحة، وطردوه من 65% من الأرض السورية، وكادوا يطيحونه عام 2012، ويقتلعون الأسدية من شروشها، لو لا لم ينقذها أول مرة تدخل إيران ومرتزقتها. وفي المرة الثانية، عام 2015، غزو روسيا وشنها حرباً شعواءً على الشعب والجيش الحر. وثانياً: لأن السوريين صمدوا في وجه حرب إقليمية/ دولية، شنتها دول وقوات متعددة الجنسيات، منها روسيا، بما تملكه وتستخدمه من أسلحة متطرفة وجيش خبير جداً في قمع أمني الشعوب وتطلعاتها وثوراتها.

كان النظام يعتقد أن الثورة في سوريا ضرب من الاستحالة، والسبب أنه لا يوجد فيها شعبٌ حتى يقوم بثورة، كما صرَّ بشار الأسد قبل أيام من انفجار التمرد المجتمعي الهائل. وعندما وقعت الانتفاضة، قيل عموماً إنها لن تستمر غير أيام قليلة. وحين تسلح السوريون قيل إنهم لن يصمدوا في مواجهة جيش منظم ومسلح، يفتقر إلى أية روابط وطنية معهم، ولن يتردد في استعمال أقسى أنواع العنف ضدهم.

أخيراً، وحين مالت موازين القوى لصالح السلطة، قيل إن انهيار الشعب غداً وشيئاً، وصمدوا مستحيلًا، وهذا نحن في العام السابع من الصراع، والعام السادس من التدخل الإيراني الكثيف، والثالث من الغزو الروسي الواسع، ومجتمعنا القوي واقفٌ على قدميه، بفضل روح الحرية الحية في صدور بناته وأبنائه، وشحنة الكرامة التي زرعتها انتفاضته في قلوب مواطناته ومواطنه، ويستحيل أن يخرجه أحد خلو الوفاصل من أي حلٍّ سياسي، لأن العالم سيد نفسه مرغماً على إعطائه بعض ما طالب به، فالشعب الذي حقق هذه الأعاجيب يستطيع مواصلة نضاله المشروع بوسائل أخرى تغطي العالم، ومن حفظه حب الحرية وكره الاستبداد إلى تقديم أكثر من مليون شهيد، لن يدخل بالمزيد، في حال قرر العالم إخراجه صفر اليدين من صراع غداً وجوده مرتبطاً بنمط حله، إن تهاون فيه خسر نفسه باعتباره شعباً، ودخل في حقبة ما بعد سوريا، سيكون ضرباً من الاستحالة لم شتاته بعدها.

رابعاً، ليس بين القرارات الدولية بشأن تسوية الصراع السوري فقرة واحدة تتعارض مع مصالح الشعب والثورة، وليس بينها قرار واحد لصالح النظام الأسدية الذي تلزمها وثيقة جنيف بإخلاء مكانه وتسليمها لنظام ديمقراطي بديل له. لفترض الآن أن الأمور آلت إلى رفض تطبيق هذه القرارات الدولية: هل يعني ذلك أنها لم تعد ورقة قوية في يد شعبنا وممثليه، إن

أحسنوا الإفادة منها أمكنهم إشهارها في وجه أعداء حقوقه، وواصلوا نضاله استناداً إلى ما تمنحهم إياه من قوة معنوية لم يقد أحد منها إلى اليوم، على الرغم من أهمية الشرعية القانونية، وخصوصاً منها الدولية، بالنسبة لآمالات الصراعات الكبرى ونهائياتها، لكن حسن استخدامها يمكن أن يبدّل كثيراً من مفردات صراعه ضد الاستبداد وممارساته ونظامه.

خامساً، حجم الجاليات السورية ودورها في المواقع المفتاحية من العالم، وتمتعها بخبراتٍ رفيعة المستوى، تمتلكها شخصيات وطنية فاعلة ومؤثرة داخل مجتمعاتها، تستطيع المبادرة إلى نسج

علاقاتٍ نشطة مع أوساطها السياسية والبرلمانية والإعلامية والاقتصادية والثقافية، التي تلعب دوراً مفتاحياً في مواقف حكوماتها وبرلماناتها وأحزابها ورأيها العام، فإن نجاح تفعيلها كجاليات منظمة لعبت أدواراً لا تقل أهمية عن الدور الذي يلعبه الداخل، وأمكنها القيام بالكثير مما كان يقوم به، في حال تعرضه لانتكاسات تقوّض دوره وحقوقه. ثمة اليوم مجتمعان سوريان، واحد في الداخل وآخر في الخارج، فإن تكامل التنسيق بينهما، بحيث يتقدّم دور الخارج بقدر ما يتراجع دور الداخل وبالعكس، فتح السوريون جبهة لا يستطيع النظام مواجهتها أو السيطرة عليها، بوسّعها إلّا حاق هزائم دولية جدية متلاحقة به، وتشكيل رافعة للنضال الوطني/ الديمقراطي العام، بما تمتلكه من قدرةٍ على ممارسة شتى أنواع الضغوط عليه، وعزله دولياً، وردم معركة الحرية ضده بأسكال قانونية وحقوقية وسياسية جديدة ومؤثرة.

لا يستطيع أحد في عالمنا الذي فشلت دوله في كبح ثورة السوريين الوطنية/الديمقراطية وإخمامها، تجاهل حقوق شعب طالب اليوم قطاعات واسعة من نخبه وحركاته المجتمعية داخل وطنه وخارجها، بتنظيم قدراته بطرق تحول دون تكرار الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها مؤسسات المعارضة منذ انطلاق الثورة، وتسمح بملاقيّة التطورات المحتملة من موقع وطيد: ديمقراطيّي الخيارات وطنيّي الهوية والأبعاد، يستأنف رهان الثورة الأصلي باعتبارها ثورة حرية لشعب سوري موحد، ترفض المذهبية والطائفية وتنظيماتها في النظام ومرتزقته، وفي ثورة "داعش" وجبهة النصرة المضادة. هذا الزخم المبارك الذي يقدم دليلاً إضافياً على قوة المجتمع السوري وشرعية ثورته، يستطيع حمل قضيته العادلة إلى آفاق جديدة، والحوّل دون تجاوزها إقليمياً ودولياً، وإبقاء جذوتها متقدّة إلى أن يستجيب العالم لرغبات شعبها الذي قدّم ملايين الشهداء والجرحى والمعتقلين والمغيبين من أجل حريته: أثمن ما يمكن أن يضحي شعب من أجله، إن كان يريد حقاً تحرير المجال السياسي من الاستبداد، وإقامة دولة العدل والمساواة والمواطنة المتساوية، وحفظ كرامة السوريين الإنسانية.

قد لا ينال الشعب السوري جميع ما طالب به. وفي المقابل، لن تتمكن قوة من إبقاء النظام الأسدية رابضاً على صدور السوريين. ولن ينجح أحد في استعادة الوضع الذي كان سائداً قبل الثورة عليه، وستخرج سوريا الجديدة من حطام سوريا الأسدية، وسيبني شعبها المجد والموهوب، والذي قام بثورة تعلم كل مواطن في عالمنا أن في وسع عينه أن تلاطم مخرز الاستبداد، إن صمم على التضحية من أجل حريته. ولن يكون بعيداً الزمن الذي سيدركنا بأفضل شهدائنا على الناجين منا الذين سينعمون بوطنٍ لا يشبه في شيء معسكر الاعتقال الأسدية الذي دمرناه، ولن يكون باستطاعة أحد إعادتنا إليه تحت أي اسم أو ذريعة.